

دور اللغة في تنمية الطاقات البشرية وتجربة اللغات الأجنبية في البلدان الإفريقية⁽¹⁾

إدريس الكتاني

الأستاذ بجامعة محمد الخامس (الرباط)

ان الدور الهام الذي لعبته اللغات في تاريخ الحضارات والفكر البشري ليس بالشيء المجهول الذي يحتاج الى توضيح جديد هنا ، واذا كانت الدول الكبرى خلال التاريخ ، وفي العالم المعاصر ، تهتم بتطوير ونشر لغاتها الوطنية، فلتقديرها لهذا الدور ، وشعورها بأهميته البالغة في بنيانها الاجتماعي ، وعظمتها الدولية .

وتعتبر فرنسا من اشد الدول المعاصرة احساسا بهذا الدور ، ولذلك فهي تبذل في سبيل لغتها ما لا تبذله اية دولة اخرى .

منظمة اليونسكو تنصح الدول النامية باستعمال لغاتها الوطنية في التعليم

وفي تقرير اعدته لجنة من خبراء اليونسكو كلفت بدراسة مسألة الحفاظ على اللغات الوطنية للشعوب النامية ، وتطورها ، والتدابير التي يمكن اتخاذها لتعجيل باستعمالها في التعليم ، طبقا لرغبات هذه

ان اللغة ليست اداة تفاهم واتصال فقط ، ولكنها ايضا اداة للتفكير والتأمل . والانسان يفكر باللغة التي يتكلمها ، ويعيش تحت تأثير قيمها الثقافية والعلمية والدينية ، وباختصاصه واستيعابه لرموز لغته الوطنية، وكناياتها ، واستعاراتها ، وايقاعاتها ، ودلالاتها الخاصة بالزمان والمكان ، يستطيع ان يدرك الحقائق العلمية ، والظواهر الاجتماعية ، ويتجاوب مع الناس والاحداث، وينمي طاقاته العقلية والبدنية والانتاجية ، وذلك ببذل نفس الجهود المعتاد في البلدان المتقدمة .

لكن عندما يفرض على شعب متخلف استعمال لغة اجنبية عنه ، لاسباب استعمارية او سياسية او طبقية او مذهبية ، هل تستطيع اللغة الاجنبية ان تؤدي وظيفة اللغة الوطنية ، وان تصبح اداة سهلة لتحقيق الاهداف الوطنية ، وخاصة ما يتعلق بمحاربة الامية ، وايقاظ الوعي الوطني ، ونشر الثقافة والقيم الاخلاقية ؟ وهل سيكون بوسعها ان تساعد على تعميم التعليم ، وتحقيق تطور اقتصادي واجتماعي لمعوم المجتمع ؟

(1) « نشر هذا البحث أولا باللغتين الفرنسية والانجليزية بمجلة

« Cahiers Africains d'Administration Publique » التي يصدرها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري للتنمية « CAFRAD » التابع للامم المتحدة بمدينة طنجة ، في عددها الخاص بتحضير المؤتمر الافريقي المنعقد بطنجة في 18 شتنبر 1972 لدراسة « مشاكل نمو الطاقات البشرية والتسيير في القطاع العام الافريقي » عدد 8 غشت 1972 . وقد تفضل السيد الاستاذ الكتاني باتحاف مجلتنا بهذا البحث القيم الذي نختصره للقراء .

مع مصلحته هو لا مصلحة البلد الإفريقي الذي يعنيه الامر ، ونظرا لذلك فان الشخصية الوطنية لاغلب الدول الإفريقية أصبحت هي نفسها من مخلفات الاستعمار ، فليس من المدهش اذن أن عددا قليلا جدا من هذه الدول هي التي استطاعت أن تبني لغة فصحي للتقنين (Langue véhiculaire) تكون في نفس الوقت « وطنية » و « افريقية » .

ان الاساتذة لسوو وكرانست ووليامس (Low, Grant et Williams) فضلا عما اكده من أن الاطفال الذين يدرسون بلغة تختلف عن لغة الامومة لا يتقدمون الا ببطء ، يعترفون بأن الإنجليزية تعلم بطريقة سيئة جدا في افريقيا ، واغلب المعلمين في عدة نواح افريقية لم يتلقوا أي تكوين ، وخاصة في افريقيا الغربية ، وحسب تقرير بانجو Banjo سنة 1962 ، كان يوجد في نيجيريا الغربية 26 000 معلم من بين 40 000 لم يقع تكوينهم .

« وهذه الانتقادات تتوجه خاصة الى المدارس الابتدائية ، ومع ذلك فان التعليم الثانوي أيضا لا يقوم الا على اقلية من التلاميذ ، ويوشك الامر ، كما هو حاصل في الهند ، ان تنفصل النخبة عن الشعب ، بسبب استعمال اللغة الإنجليزية » .

وبعد استقلال الدول الإفريقية استعملت بعض اللغات الإفريقية المحلية في نطاق معين ، في المستوى الابتدائي ، ولكن الإنجليزية والفرنسية لم تلبثا ان دخلتا في سلك التعليم ، وغالبا في السنة الاولى من الثانوي، وأصبحتا لغات فصحي .

وبلاحظ ان طانجانيقا هي احدي البلدان الإفريقية النادرة - باستثناء الدول العربية الإفريقية- التي لها لغة وطنية ، هي اللغة السواحلية . وقبل استقلال هذه البلاد في 2 دجنبر سنة 1961 ، عمل حزب الاتحاد الوطني الإفريقي لطانجانيقا « Tanu » على تعليمها في مدارس وطنية خاصة تابعة له ، كما عمل على تعليمها للكبار في البلاد كلها ، ولم يتردد بعد استقلال البلاد في استعمالها كلفة رسمية في دوائر الحكومة والبرلمان والتعليم ، وشرع في ترجمة النصوص التشريعية الى هذه اللغة ، وفي سنة 1965 أصبحت اللغة السواحلية اجبارية في جميع المدارس الثانوية ، وفي سنة 1968 فقط نظم أول درس جامعي عن الادب السواحلي في تنزانيا .

الشعوب ، وعلى أساس التجارب المعروفة في البلدان الاخرى ، اكدت لجنة اليونسكو هذه انه لا يوجد أي عائق في نظام لغة ما يحول بينها وبين جعلها لغة حضارة حديثة ، وترى هذه اللجنة انه اذا كانت (اللغة الام) كفيلا بأن تكون لغة للتعليم الجامعي والتقني ، فانه يجب استعمالها لهذا الغرض ، وطلبت اللجنة أيضا من هيئة اليونسكو أن « تدرس » امكانيات تنسيق المصطلحات العلمية والفنية للغات العلمية ، وذلك لمساعدة اللغات النامية على ان تكون لها مصطلحاتها الخاصة ، وأن تتطابق في ذلك ، بقدر الامكان ، مع مصطلحات اللغات العالمية .

البنك الدولي للبناء والتنمية ينصح باستعمال اللغة الوطنية في التعليم

وهناك مؤسسة مالية دولية اخرى اتخذت موقفا من اللغات الاجنبية يتفق مع موقف اليونسكو ، ففي سنة 1963 طلبت الحكومة المغربية من البنك الدولي للبناء والتنمية القيام بدراسة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب ، وفي التقرير الذي اعدته بمئة البنك ، بعد ان قضت في المغرب شهرا في الدراسة والبحث ، نصحت الحكومة المغربية ، ومن وجهة نظر اقتصادية بحث ، بأن تضع حدا لتعليم اللغة الفرنسية في المدارس الابتدائية توفيراً لـ 30 ٪ من وقت التلاميذ والمعلمين ، وتوفيراً لنحو 7 ملايين من الفرنك التي تنفق بدون طائل في هذا المجال ، وتخصيص هذا المبلغ الضخم في طبع الكتب ، واعداد الادوات المدرسية ، وتكوين المعلمين ، الى آخر ما جاء في التقرير من النصائح المتعلقة بتخطيط سياسة وطنية ملائمة لحاجاتنا ومصالحنا .

تجربة اللغة الأجنبية في شرق وغرب افريقيا

كانت اللغة الإنجليزية حتى سنة 1963 هي اللغة الرسمية لدول افريقيا الشرقية الثلاث : طانجانيقا وكينيا واوغندا ، كما هي الحال في مستعمراتها الإفريقية السابقة الاخرى ، ولكن هذا لا يعني أكثر من انها لغة نخبة تمثل نسبة ضئيلة من السكان ، لا يتجاوز مستواها بضعة اعوام في التعليم .

واكبر مشكلة واجهتها هذه البلدان بعد استقلالها السياسي هي ان الاسلوب التربوي عندها من وضع النظام الاستعماري الذي عمل على أن يتناسب ويتطور

هذه اللغة ، واذا كان الرئيس نيريري قد استطاع ترجمة « يوليوس قيصر » الى اللغة السواحلية فان هذه اللغة لا يمكن أن تكون صعبة للغاية - كما حاولت التايمس (Times) في ملحقها الادبي سنة 1967 اظهار ذلك - مثلما يقال بالنسبة للغات افريقية اخرى. وهناك عقبات كبرى وضعت لحذف اللغة الانجليزية او الفرنسية لفائدة لغات محلية ، وحتى لو لم تكن هذه شائعة كاللغة السواحلية .

ونشير اخيرا الى أن وجود لغة وطنية افريقية واسعة الانتشار ، كاللغة السواحلية كان له تأثير كبير على القادة الافارقة الذين كانوا بصدد انشاء منظمة سياسية قوية .

وتلعب اللغة السواحلية في اوغندا - التي استقلت سنة 1962 ، ويبلغ عدد سكانها 10 ملايين - دورا اقل أهمية من دورها في تنزانيا ، فحتى سنة 1963 كان في اوغندا عدد كبير من الاوغنديين يفهمون اللغة السواحلية في مستوى قضاء حاجاتهم من السوق ، كما أن عددا اقل من ذلك يتكلم هذه اللغة بسهولة ، مع العلم بأنها تعلم في المدارس الاوغندية خلال فترة التقارب بين البلدين ، وقبل أن يقع التخلي عنها في سنوات 1930 . أما النقابات والاحزاب فكانت تستعمل الانجليزية في اجتماعاتها ، وترجم خطبها الى اللغة الاوغندية او السواحلية .

ويرجع ضعف اللغة السواحلية باوغندا لكون الطرق التجارية بها لم تكن قد تطورت بالقدر الذي حدث في طنجانيقا ، وهناك سبب آخر اكثر أهمية وهو وجود قبيلة كبيرة وقوية كانت تتمسك باستعمال لغتها .

وبالرغم من القرار الذي صادق عليه مجلس الشعب الاوغندي سنة 1962 بتقوية استعمال السواحلية لفائدة الوحدة بين الشعبين الاوغندي والتانزاني ، فان المسؤولين الاوغنديين ظلوا مستمرين في استعمال لهجات قبلية في برامجهم الاذاعية ، ولم يقتصروا على السواحلية .

وكان يبدو أن النخبة الاوغندية قد اختلفت فيما يرجع لمسألة اللغات ، واتضح هذا بمناسبة حوار جرى سنة 1962 حيث انتصر عدد من الشخصيات السامية (ثلاثة منهم أصبحوا وزراء بعد ذلك) لفائدة اللغة السواحلية ، وعلل أحدهم وهو نكوبي موقفه بأنه استحال عليه مدة عشرين عاما القاء خطب بالانجليزية امام الجماهير الشعبية ، بينما عارض سروانو الذي

ولم تصل سنة 1970 حتى فرض على جميع التلاميذ أن يجتازوا امتحانا في هذه اللغة في مستوى البكالوريا . « مع العلم بأن تعليما متقدما باللغة الانجليزية لا يزال مفروضا في السنة الاولى من التعليم الثانوي ، ويتمنى في بعض الاوساط أن تصبح التربية الوطنية كلها بما فيها التعليم الجامعي باللغة السواحلية ، ومع ذلك فان اعداد المواد البيداغوجية قلما يتجاوز مستوى المدارس الابتدائية » .

وفي سنة 1970 ايضا اعتبرت اللغة السواحلية الوحيدة التي يمكن لمرشحي الاتحاد الوطني الافريقي استعمالها اثناء حملتهم الانتخابية ، وفلا فقد صرح نائب رئيس الجمهورية رشيد كاواوا قائلا : « اذا كان السكان لا يعرفون اللغة السواحلية فان جميع المرشحين يجب أن يكونوا مصحوبين بمرجم » ، وعندما أصدر كاواوا الأمر لجميع الادارات الرسمية ، والى لجان الاتحاد ، سواء على المستوى الاقليمي او في المقاطعات ، باستعمال اللغة السواحلية كلفة تعبير ادارية قدم ، بصفة خاصة ، الملاحظات التالية : « ان اكبر جزء من الاوراق المستعملة لا تزال حتى الآن مطبوعة بالانجليزية مع اننا نعلم جيدا ان أغلبية الذين يعنيههم الامر لا يعرفون هذه اللغة ، انها اهانة موجهة الى الامة » .

وفضلا عن ذلك فقد قام الرئيس نيريري بترجمة يوليوس قيصر (Jules César) لشكسيير الى اللغة السواحلية ، وهو الذي قال : « في خلال ثماني سنوات لم التجيء لمرجم الا مرة واحدة » .

وقد اكتسبت اللغة السواحلية أهميتها من عدة عوامل ، فهي منتشرة في جزء كبير من افريقيا الشرقية ، وخاصة في الكونغو الشرقي واوغندا الجنوبية وهي ايضا منتشرة في كينيا ، فضلا عن انها أصبحت اللغة الرسمية في تنزانيا ، وهي لغة تعبير عن جميع الاشياء والافكار ، وبفضلها استطاع موظفو الاتحاد الوطني الافريقي لطنجانيقا أن يتصلوا بالقاعدة الشعبية ، وأن يقوموا بنشاطهم في الاقاليم التي لا تكاد تعرف . يضاف الى ذلك ان اللغة السواحلية كانت دائما مقوما اساسيا للشخصية الوطنية لطنجانيقا ، واحدى خصائصها العميقة .

ومن المفيد ان نشير الى ان اللغة السواحلية ، حسب جميع القواعد ، بعيدة من أن تعتبر لغة «بدائية» ذلك أن ادبها الحي الشعري يرجع الى القرن السابع عشر ، ومن أجله وقع استعمال الكتابة العربية ، ولم يقتصر الامر على الكتابة ، فقد كانت تعرف أيضا من